وهناك قسم ثالث يجمع بين خصائص كل من الجغرافيا الطبيعية والبشرية ويطبقها على مناطق العالم المختلفة. وهو ما يطلق عليه اسم الجغرافيا الإقليمية. كما ان هناك الجغرافيا التاريخية التي تدرس تطور البيئتين الطبيعية والبشرية على امتداد التاريخ أو في فترة منه، وفي العالم أجمع، أو في إقليم خاص منه. فهي باختصار دراسة جغرافية متطورة، أو دراسة الجغرافية بكل فروعها عبر الزمن. وهناك علوم تلتصق بالجغرافية التصاقاً كبيراً يجعلها ضمن نطاقها أهمها (علم الخرائط Cartography). والخريطة هي مختبر الجغرافي، وهي الوسيلة التي تبرز له وجوه الاختلاف والتشابه، كما تحدد له المشاكل والحلول[1]. ويقول (جيمس) James: (ان أهم إضافات الجغرافيا لمعرفة العالم قد انبثقت في الغالب عن تطبيق تقنية التوزيع الخرائطي)[2].

فاستخدام الخرائط في العمل الجغرافي أمر بالغ الأهمية فإذا كانت مشكلات الجغرافي لا يمكن دراستها مبدئياً بوساطة الخرائط- وفي العادة بموازنة بضع خرائط- فان الدراسة ستكون عرضة للتساؤل فيما إذا كانت ضمن الحقل الجغرافي أم لا[3].

---

[1] محمد رشيد الفيل، وفؤاد محمد الصقار، مرجع سابق، ص ١١-١٢.

[2] ريشارد هارتشورن، مرجع سابق، ص ٣٧٨.

[3] نفس المرجع، ص ٣٨٠.

وتمتاز الجغرافيا بخصائص تميزها عن سائر العلوم أهمها[1]:

١. النظرة الشمولية في البحث: تتمتع الجغرافية بمدى واسع من القدرة على تحليل الظواهر المنتشرة على سطح الأرض وخاصة تلك الناجمة عن علاقة الإنسان ببيئته، بحكم ارتباطها وصلتها بمواضيع أخرى كالاجتماع والاقتصاد والجيولوجيا والجيمورفولوجيا.

٢. تشابك التفسيرات: فالجغرافية تدرس كل الظواهر الموجودة في بقعة ما لأن كل الظواهر تشكل الوحدة التي يحاول الجغرافي فهمها.

٣. اتساع مصادر البيانات: ان تعقيد العلاقات وتشابكها يفرضان على الجغرافي البحث عن مصادر للبيانات والمعلومات عن جميع أنواع النشاط.

٤. ديناميكية الموقع والعلاقات المكانية: فالجغرافية لا تدرس النشاطات على أساس أنها ظواهر ثابتة وإنما تدرسها على أساس تغير خصائصها الدائمة.

٥. الشخصية الثنائية: حيث تجمع بين العلوم الطبيعية والعلوم البشرية، وتقوم على أساس عدم الفصل بين الإنسان وبيئته، وهي بهذا تنفرد عن سائر العلوم.

٦. اهتمامها بالدراسات الإقليمية وذلك بإجراء مسح شامل لكافة الظواهر الموجودة على سطح الإقليم.

٧. الخريطة: وهي أداة الجغرافي ووسيلته في البحث إذ يوزع عليها المعالم الطبيعية ومختلف الظاهرات البشرية.

---

[1] حسن طه النجم (وآخرون)، مرجع سابق ، ص ٢٨-٣٠، احمد نجم الدين (وآخرون)، مرجع سابق، ص٧.

البدايات الأولى للفكر الجغرافي

مقدمة :

* بدأت معرفة الانسان لسطح الكرة الارضية منذ آلاف السنين ، وكانت هذه المعرفة نتيجة للتأثير المتبادل بين الانسان وبيئته ، وتناولت تلك المعرفة دراسة سطح الارض من حيث الملامح الطبيعية والمناخ والانتاج والشعوب .

وقد مارس الانسان المعرفة الجغرافية منذ ان حاول الوقوف في وجه القوى الطبيعية والحصول على مقومات حياتية من طعام وسكن وملبس ولم يقتصر اهتمام الانسان على سطح الارض ، بل اهتم كثيراً بمعرفة السماء وكثيراً ما كان موضع اهتمامه الحيوي وفي بعض الاحيان مثار قلقه الشديد .

* وتمتاز المعرفة الجغرافية عن بقية المعارف بالشمول والتغيير ، فمن ناحية الشمول ، فالجغرافية مستمدة من نتائج العلوم المتخصصة كالجيولوجيا والمتبورولوجيا والفلك والانثروبولوجيا ، والبيولوجيا . اما من ناحية التغيير ، فقد حدثت في محتوى الجغرافية ، ومناهج وطرق البحث فيها .

والشمول والتغيير الذي امتازت به المعرفة الجغرافية ، فسح المجال امام الباحثين لوضع حدود شبه ثابتة للمعرفة الجغرافية الامر الذي جعلهم يختلفون في تحديد مفهوم ثابت لعناصر علم الجغرافية المتمثلة في المحتوى والطريقة والاسلوب .

وينبغي على كل متخصص او مؤلف الا يقتصر تعريفه للجغرافية ، على ما يتراءى له او ما يتفق مع تخصصه ، بل لابد له ان يفحص الموضوع بتجرد تام ، وهل من ضمان من ان يتسلل التحيز هنا ؟

وامام هذا الخلاف في وجهات النظر وابتعاداً عن التحيز الذي يقع فيه الباحث في تحديد الجغرافية ، يمكن اتباع الوسيلتين التاليتين مع ما فيهما من عيوب :

الاولى : ان تدرس ماذا فعل الجغرافيون في الماضي ، وهنالك عدة محاذير من اتباع هذا الاسلوب منها ان الجغرافيين في الماضي ، ربما كانوا انتقائيين في عملهم ، وربما تجاهلوا تجاهلاً كبيراً مواضيع عديدة كالظاهرات الاجتماعية مثلاً .

اما الوسيلة الثانية ، فهي ان تهمل كل ما كتب في الجغرافية تماماً ثم تبدأ بتعريف ما يجب ان تكون عليه الجغرافية ، وللمرأ ان يرجو خيراً من هذه الطريقة ، فهي ممكن ان تؤدي الى تعريف كامل للجغرافية ، ووضع خطة لما ينبغي ان يدرسه هذا العلم .

واختلاف الاسس التي تعتمد عليها الوسيلتين الماضيتين ساعد على تعدد التعاريف لعلم الجغرافيا .

وحتى اليوم لم يتفق الجميع على تعريف واحد جامع مانع مختصر يحدد طبيعة هذا النوع من الدراسة تحديدا دقيقا .

فاذا كانت الجغرافيا ، كما عرفتها بعض القواميس ، هي علم الارض وشكلها ومظاهرها الطبيعية واقسامها السياسية ومناخها ومنتجاتها وسكانها ، الخ ، فان بعض العلماء يوجه الى هذا التعريف نقدا له اعتباره ان كل جانب من الجوانب التي اعتمدها التعريف تختص بعلم قائم بذاته .

وقد انعكست الخلافات في تحديد المعرفة الجغرافية على شمولية المعرفة الجغرافية واقتحامها وابواب دراستها .

ولقد كان يظن من قبل ان الجغرافيا ، تنقسم الى قسمين هما الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية ، حتى لطالما سمعنا عن ثنائية التفكير في علم الجغرافية ، غير ان الواقع يخالف ذلك ويأباه ، لان الجغرافيا التي من شأنها ان توحد بين مختلف الظاهرات في المكان من وجهة نظر الانسان لا يمكن ان يقبل هنا الانقسام ، وانما ذلك لا يبدو ان يكون مجرد مظهرين لشيء واحد احدهما بالنسبة للآخر كالأساس

مكتبة احمد مجاور الباب الامامي

بالنسبة للبنيان الشامخ فلا جغرافية بشرية بغير اساس طبيعي على ان المظهر البشري للجغرافيا يشمل كل ما هو متصل بالنشاط الانساني والذي من شأن الانسان ان يتحكم بسببه ونتيجته في حين تكون المظاهر الطبيعية بعيدة عن تدخل الانسان الا بحدود .

والجغرافيا بطبيعتها انما توحد بين الظاهرات المختلفة طبيعية كانت او انسانية في المكان من وجهة نظر انسانية ، فاذا كانت العلوم المختلفة قد جردت تلك الظاهرات الطبيعية او الانسانية لتسهيل البحث فيها ودراستها دراسة تخصصية ، فان الجغرافيا تنظر اليها ككل وتعيدها الى وضعها الحقيقي كوحدة طبيعية اجتماعية وبذلك تكون الجغرافية بمثابة الجسر بين العلوم الطبيعية والاجتماعية ، ومن اخص خصائص الجغرافية البحث عن العلاقات بين مختلف هذه الظاهرات ثم تحليل الظاهرات الطبيعية والبحث عن علاقتها بالنشاط البشري عامة ، ولئن كانت الجغرافيا بهذه الصفة علما تحليليا فانها في نفس الوقت ايضا علم تركيبي .

ولعل الصفة التركيبية لعلم الجغرافية وارتباطها بالعلوم الاخرى كانت السبب الذي دفع غير المتخصصين بالجغرافيا الى القول بان الجغرافيا ليست علما بل هي خليط من العلوم الاخرى .

وحيث اننا سنعود لبحث هذه المواضيع عند بحثنا للمدارس الجغرافية ، لذلك سنكتفي بالقول بان المعرفة الجغرافية معرفة متطورة ذات طبيعة شمولية متباينة زمانا ومكانا . .

المبحث الاول

الفكر الجغرافي في العصور القديمة :

ليس من الممكن ان تحدد بداية او تاريخ لتطور الفكر الجغرافي وانما يمكن الربط بينه وبين المرحلة آلتي بدأ فيها الانسان محاولة التأمل بوعي وادراك للظواهر الطبيعية المحيطة به، والبحث عن امكانية البيئة ومحاولة استقلالها وايجاد السبل لاستثمارها. حينذاك يمكن القول بان الفكر الجغرافي قديم قدم التاريخ البشري وكانت بداية الفكر والمعرفة الجغرافية محدودة بسبب محدودية حركة الانسان وبذلك يمكن وصف المعرفة الجغرافية بانها ذات طابع مكاني محدود.

وتاتي هذه المحدودية نتيجة عوامل كثيرة منها كفاية مقومات البيئة لمعيشة الانسان بسبب قلة عدده، كما ان معرفته بظروف البيئات البعيدة كانت محدودة، ويمكن وصفها بانها ذات طابع يمتاز بالسهولة اذ ان الانسان الاول ارتاد المناطق السهلة والآمنة للبحث عن مصادر رزقه وادامة حياته، متجنباً المناطق ذات الطابع القاسي، ففي العصور القديمة كان الانسان القديم يعيش على الجمع والالتقاط والقنص والصيد وهو بذلك يشبه الجماعات البدائية التي تعيش في الوقت الحاضر في بعض اجزاء العالم والتي تمكنت قبل ان تتوصل الى معرفة الكتابة من عمل بعض الرسوم البسيطة او الخرائط على قطع من الجلد او على الرمال ليبين فيها بعض الدروب والمسالك التي يتبعونها في مواسم الصيد والقنص، كما ان فطرته دفعته لتصوير بعض الظاهرات الموجودة في بيئته كالانهار والجبال والاشجار والبحيرات بصورة بدائية على الصخور وجدران الكهوف[1]

ومما زاد في صعوبة العيش في هذه المرحلة حدوث ازمات جليدية قاسية) اشتد فيها البرد وغطت طبقات الجليد الزاحفة شمال اوربا الى ما بعد جبال الألب، فانهزم الانسان الى البقاع الجنوبية من الارض والتجأ الى الكهوف اتقاء الزمهرير القاسي، وكان يفصل بين عصر جليدي وآخر فترة يتبدل فيها المناخ ويتراجع الجليد الى الشمال، وكان كلما حصل جليد في اوربا وامريكا ظهر في الشرق الادنى وفي افريقية وغيرها من البقاع الاسيوية الجنوبية زمن تكثر فيه الامطار

(١) يسرى الجوهري، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشاة المعارف بالاسكندرية - الطبعة الثالثة، ١٩٧٦، ص ٤٧

مكتبة احمد مجاور الباب الامامي

والرطوبة وقد سميت مثل هذه الازمات بالعصور المطرة ، وقد كثرت الامطار وعمت حتى جزيرة العرب ومنطقة الصحارى في افريقية ، مما مكن الانسان والحيوان من ان يعيشا فيها ، اما الفترات بين العصور الجليدية في اوربا فكان يقابلها في انحاء الشرق الادنى عصور جفاف ونحن نعيش في آخر فترة جفاف .(١))

وعندما انتقل الانسان من حرفة الجمع الى حرفة الزراعة منذ اواخر العصر الحجري ، تبدلت اساليب عيشه ، فتحول الى منتج بعد ان كان مستهلكاً فقط . فتعلم حراثة الارض وزرعها بالحبوب التي كان يجمعها في العصر السابق ، وانتقاله الى حرفة الزراعة فرض عليه الاستقرار في منطقة معينة طيلة الموسم الزراعي الامر الذي دعاه الى الاهتداء الى بناء البيوت الثابتة وتأسيس المراكز الحضارية المتمثلة في مجموعة القرى التي استقر فيها الانسان في اواخر العصر الحجري الحديث وبجانب الزراعة استأنس الحيوان ، الامر الذي دفعه الى البحث عن مصادر الحياة الثابتة ، فلجأ بذلك الى ضفاف الانهار ، وبذلك تهيأت امامه فرصة للارتقاء بمعرفته الجغرافية المتمثلة في معرفة مواسم فيضان الانهار وضرورة المحافظة على تلك المياه وربط بين مواسم الفيضان وفصول السنة المختلفة ، وكان من نتيجة ذلك ان اتسعت امكانياته الزراعية فلجأ الى تقسيم الاراضي الزراعية وايجاد طريقة لتحديد المساحات وايجاد خرائط لذلك .

كما انه اضطر الى مراقبة النجوم والسماء ليحسب مواعيد الزراعة ، وبذلك بدأت طلائع الفكر الجغرافي المرتبط بمعرفة الاجرام السماوية تظهر امامه الامر الذي اضطره الى معرفة الحساب والرياضيات لضبط حركة الاجرام السماوية ومواعيدها .

وعند انتقال الانسان من العصر الحجري الحديث الى عصر المعادن تهيأت امامه فرصة اوسع للسيطرة على البيئة تمثل صناعة الاسلحة واستخدام المعدن الجديد في وسائل الانتاج واستخدامها في تطوير حرفة الزراعة الامر الذي ساعد على زيادة الانتاج وقد ساعد وجود فائض من الطعام على اتاحة الفرصة لقطاع من المجتمع ان يتفرغ للدراسة والفلسفة وقد اخذت الحكومات بعد ان تكونت القديمات ونشأت الدول اخذت تهتم بتشييد المدن ودور العبادة وتحديد مواقع كل منها ودفعهم هذا الى عمل خرائط لتخطيط المدن والمعابد والطرق التي تربط بين هذه الظاهرات(١)

---

(١) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، مطبعة العاني بغداد ١٩٥١ ـ الجزء الاول ، ص ٣١

(١) يسرى الجوهري ، المصدر السابق ، ص ٤٨

لقد شمل هذا التطور الحضاري مناطق متعددة من العالم ولم يقتصر على قارة دون اخرى ، ومع ان العالم القديم كان نصيبه من الحضارة كبيرا الا ان ذلك لا يعني حرمان بقية انحاء العالم الاخرى .

فلابد ان حركات جريئة مقدامة ، بل وذات اهمية قد حدثت في طليعة العصور القديمة بين السلالات البشرية التي لم تترك آثارا او تركت منها قليلا مما يدل عليها ، ومثل هذه الشعوب كالهنود الامريكيين ، وما وراء نيوزلنده بل وحتى الصينيين فيما قبل التاريخ لا بد انهم قد اضطلعوا بالكشف الجغرافي الى مدى بعيد في حركات هجرة لسكان بكامل حجمهم وعددهم متجهة الى المجهول(٢)

* ولنا يمكن تتبع الفكر الجغرافي في العصور القديمة عن طريق تحليل الفكر الجغرافي السائد لدى العراقيين القدماء والمصريين واليونان والرومان وبقية المراكز الحضارية الاخرى التي من شأنها ان تعكس المعرفة العلمية الجغرافية لتلك الشعوب والتي تمثل بدورها مجموع الفكر الجغرافي في العصور القديمة .

والفكر الجغرافي في اعماق الازمنة الغابرة ولدى الشعوب البدائية والمتحضرة انما كان يرتكز اساساً على دعامتين واضحتين احدهما ذات مظهر فلكي والاخرى ذات سمة من الكشف الجغرافي .

ويمكن القول ان هاتين الدعامتين ظلتا اساس الفكر الجغرافي عبر القرون منذ اقدم العصور فيما قبل التاريخ حتى مشارف العصور الحديثة ، حيث اتسعت آفاق المعرفة الجغرافية واسرعت خطوات التطور الجغرافي(١)

وقد اشتركت الحضارات القديمة في جوانب متعددة مثلت المعرفة الجغرافية في الحضارات القديمة ويمكن ايجازها بما يلي :

١) **جميع الحضارات القديمة :** أهتمت بموضوع خلق الارض والسماء وخاصة الشمس اكبر الاجرام السماوية ، وشغلتها كثيراً بدرجة انعكست على حياتها اليومية ، والدينية والاجتماعية والاقتصادية . وقد ظل الانسان طويلاً منذ نشأة البشرية على سطح الارض يؤمن بصحة شيئين فيما يختص بالشمس والارض . الاول هو ان الشمس هي التي تدور حول الارض وان موطنه الذي ولد فيه يمثل مركز الارض ثانياً .

---

(٢) شريف محمد شريف ، تطور الفكر الجغرافي (الجزء الاول) القاهرة ـ ١٩٦٩ ، ص ٢٩

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨